

جناية شبرا

مررت مبكراً في الصباح بدار بوليس الازبكية في ميدان باب الحديد ، ودخلت على حضرة المأمور أروم محادثة اعلمني أن استفيد منه خبراً ما لجريديتي « الأيام » التي أنشرها في مصر منذ عهد بعيد . وكانت بيني وبين هذا الموظف النشط صداقة قديمة العهد لم يكن يعني من أجلها شيئاً بجزءه له القانون . وفيما نحن نتحدث سمعنا ضجيجاً عالياً في باحة الدائرة ، وصارخاً يصرخ ملء فيه : أين المأمور؟ أين المأمور؟ فالتفت إلي صاحبي وقال : ان خلف هذا الصباح أمراً جلالاً . فتبسمت وقلت : ذلك ما جئت اليك من أجله . ولم أكد ألفظ الكلمة الأخيرة حتى دخل علينا رجل فوق الخمسين من العمر تدك ملامحه على القلق والخوف . ولم يتمل ريثما يسأله صاحبي عما يريد من مفاجأته لنا على تلك الصورة بل قال : تفضل يا حضرة المأمور الى منزلي نمرة ١٣ بشارع سلامة في شبرا ، فقد ارتكبت الليلة فيه جناية فظيعة . ان يداً اثيمة امتدت الى ابنتي في سريرها فقتلتها شرقتلة . . مسكينة ادماء ! واهاً عليك يا ادماء !

فقال المأمور وقد مد يده الى التلفون : ومن القاتل ؟
فأجاب الرجل : لا أعرفه يا سيدي . انا أطلنا المسهر الليلة البارحة اذ كنا نعد المعدادات لحفلات هذا النهار ، فقد كان اليوم موعداً لزواج ادماء بابن عمها ووارثي الوحيد بعدها ، ونمنا على أن نبكر الى العرس فبكر الينا المأمور
وفيما كان الرجل يتكلم ، كان المأمور قد أخذ يخاطب بالتليفون وكييل النيابة العمومية

ولم تمض إلا دقائق قليلة حتى وقفت بنا العربات أمام المنزل المعين . وكنت

قد استأذنتُ صديقي في مرافقته فركبت الى جانب والد ادماء ، وفاتحة الحديث قائلاً : ألا تشرّفني بمعرفتك يا سيدي ؟ أما انا فاسمي : وسيم الرّيان صاحب جريدة « الايام » ورئيس تحريرها فقال : وانا فرج الله خوري تاجر مصوغات وجواهر في الخان الخليلي

وكانت باحة المنزل حين وصولنا قد كادت تنصّ بالاس وهم يتهايمون بينهم ؛ فامر المأمور رجلاه بتفريقهم ، ثمّ دخل ودخلنا وراءه فلقينا الخادمة تبكي بمرارة وتأوّه على سيدتها . وكان هنالك أيضاً شابّ في نحو الثلاثين من العمر بروح ويحي ، قلقاً مضطرباً ، ولم يكن في عينيه اثر للبكاء قط ؛ غير انّ يياض المقلتين كان قد تحول الى احمرار قرمزي كأنّ الدم جال فيها بدّل الدمع

ثمّ سأل المأمور صاحب الدار عن مكان وجود الجثة ، فمشى امامنا الى غرفة في أقصى المنزل وقال : هنا . . هنا غرفة ادماء . ودخلنا فابصرنا على سرير في احدى الزوايا فتاة شاحبة اللون ، واحدى يديها ملقاة على جانبها الأيسر حيث تدفق الدم فصرّح ملابس نومها البيضاء واغطية فراشها . وهي ما تزال في السرير كأنها نائمة نومة طبيعية ، مما دلّ على أنّ قائلها فتك بها في خلال رقادها . وكانت على الارض ، حذاء السرير ، سكين حادة من السكاكين التي تُستعمل في مطابخ البيوت ؛ وهي ملوثة بالدم أيضاً . أما الجاني فلم يكن أحد يعرف شيئاً عنه ؛ غير انّ خفيّر الحيّ شهد بعدئذٍ بأنه أبصر في المنزل المقابل غرفة بقيت مُنارة معظم الليل ، وخيال شابّ كان بروح ويحي فيها حيناً بعد حين . ثمّ انطلقاً نورها في نحو الساعة الثالثة صباحاً وأثر فينا جميعنا منظر الجثة وعلى مقربة منها الآلة القاتلة فارتعشنا واقشعرت ابداننا . وكان الطيب قد دخل الغرفة حينئذٍ ؛ فحسّ نبض الفتاة ، ثمّ انحنى باذنه على صدرها يتسمع خفتان قلبها . وكأنما خامره شكّ في موتها فأخذ مرآة وادناها من فمها برهة ، ثمّ تأملها فأبصر عليها شبه غشاوة مما دلّه على انه لم تزل في ذلك

الجسم بقية من الحياة . فالتفت اليها وقال : هي حية لم تمت بعد ! وكأن لفظة الحياة نبهت خطيب الفتاة فأجفل وتقدم خطوة الى السرير محملاً في الطيب كمن فوجيء بما لم يكن يتوقع . أما الأب فتراعى على أقدام الطيب وهو يقول له : أحبها . . . بربك أحبها . ثم جثا يصلي

ورأيت في تلك الساعة ما لم أره من قبل : أباً جائياً يدعو الله ومليء نفسه خشوع ورجاء وملء ناظره ذلة وحزن ؛ وعاشقاً تنتقل نظراته من السرير الى الطيب الى السكين ؛ ورجال حكومة واجمين ينظرون بلهفة وأمل ؛ وطيباً أحدثت به القلوب كأن كهر بآية انتقلت منها الى يديه فحركتها على ذلك الجسم المسجى بدون حراك . ورأيتني وحدي في ذلك الموقف ثابت الجأش أرى والأحظ ، وأعي غير ذاهل ، حتى لقد ظننتني اسمع خفقة كل قلب في كل صدر ، واحس ديب كل خاطر في كل ضمير

حينئذ أشار الطيب فخرج الجميع من الغرفة ، واقام هو وحده يعالج الفتاة . وبث الأمور رجاله في المنزل وحواليه ، ثم أخذ في التحقيق الأولي فعرف أن رب البيت يسمى فرج الله خوري وأنه يتجر في الخلان الخليلي بالمصوغات والحجارة الكريمة ، وأن ابنته وحيدة له واسمها أدماء وقد توفيت والدتها وهي في نحو الخامسة من عمرها فربما ما ابوها وأدبها في المدارس ولم يشأ أن يتزوج ثانية حباً بها وغيره عليها . أما الشاب خطيب ادماء فاسمه سليم خوري وهو ابن أخ للخواج فرج الله ؛ هاجر بعد وفاة ابيه الى الترانسفال واقام فيها نحواً من عشر سنوات ، ثم جاء القاهرة للزواج بأدماء والاقامة في هذا القطر

وفي نحو الساعة التاسعة جاء وكيل النيابة السومية وشرع في التحقيق الدقيق فلم يلبث أن توصل الى معرفة الجاني ؛ فان الخادمة اطلمت على علاقات أدماء بنق يدعى «فواد اليافي» يسكن منزلاً مجاوراً . وكان كثيراً ما يحدث أدماء من النافذة

متى خيم الليل ونام الخواجا فرج الله . وكانت الخادمة تنقل رسائله الى سيدتها وتحمل أجوبتها اليه ؛ قالت وأن آخر رسالة جاءت بها منه كانت في نفس الليلة التي ارتكبت فيها الجناية وقد ناولها ايها بيد مرتجفة وفي نظراته معنى الاضطراب والغضب
وعند وكيل النيابة على تلك الرسالة تحت وسادة ادماء فاذا هي هذه :

« وعدت ثم أخلفت . ويل لك يا ظالمة ! أعقبى جنات تكوني زوجة لسواي ؟ ؟ تالله لن يكون ذلك ابداً . ليس والدك الذي أراد ، بل أنت التي آثرت ابن عمك علي . كذبت في غرامك ، كما كذبت في عهدك . أمّا أنا فلن اكذب في عزمي . آليت ألا يسعد ابن عمك بك ، وأشقى أنا بدونك . الويل لي اذا كان المأثم غداً بدلاً من العرس ! ! »
فؤاد

ثم طرقت رجال البوليس منزل فؤاد الياني وقد اقتنع وكيل النيابة كل الاقتناع بأن فؤاداً هو الجاني لا غيره ، وبأن الذي دفعه الى ارتكاب الجريمة انما هو الغيرة والغرور . ومما ايد هذا الاقتناع أن فؤاداً لم يبت ليلته كلها في منزله ؛ فقد جاء في نحو الساعة السابعة مساءً ، وخلا بنفسه في غرفته الخاصة دون ان يتناول طعام العشاء . ولما افتقده أهله في الصباح لم يجدوه ، ولكنهم وجدوا رسالة منه على مكتبه . فأمر وكيل النيابة بها فاذا فيها ما يأتي :

الى والدي الزيزين

ليس في استطاعتي ان أشهد غداً عرس جارتنا ادماء . لأن الغيرة تأكل قلبي لذلك أنا ذاهب الساعة الى حيث لا أدري . ومتى شفيت نفسي من آلامها عدت اليكما . ما محازاتي ، وترقباً أخباري
فؤاد

ودققت النيابة في استجلاء حقيقة العلاقات بين فؤاد وادماء ، فوقعت على رسائل كثيرة في حوزة الفتاة ازالته كل شبهة عن غرام فؤاد وغيرته . واتصلت بها من شهود كثيرين امور تافهة في حد ذاتها ، ولكنها اذا أضيفت الى مجمل القرائن

كانت دلائل قوية على ثبوت الجريمة على ذلك الشاب . ولما توافرت الأدلة على هذا الشكل أمرت النيابة بتعقب الجاني، وضيقت عليه سبل الفرار من القطر المصري بما بثته من العيون والارصاد

وفي ذلك النهار نفسه ورد على نيابة مصر تلعراف من بوليس الاسكندرية يُفيد القاء القبض على المتهم وهو يتأهب للسفر الى أوروبا على احدى البواخر . فجاء هذا دليلاً جديداً على أن فؤاداً هو الجاني ، لأن سفره الفجائي لم يكن الاً بنية الفرار من وجه القضاء والعدل

واتصل خبرُ الجناية بصحف العاصمة فشرته ، كعادتها في أمثاله ، مقتضياً ومذنباً بكلمات الثناء على مهارة النيابة العمومية ، وتيقظ رجال البوليس . أما أنا ، وقد رأيتُ بعيني ، وسمعتُ بأذني ، قاني رويتُ الحادث في « الأيام » مسهباً في تفصيل وقائمه كل الاسباب . ثم قلت في ختام كلامي : ان على النيابة أن لا تغشى عينها الأدلة التي اعتبرتها مثبتة للجريمة على فؤاد افندي الباني ، فقد يحتمل ان تكون تلك الأدلة من نحو الشذوذ في الاتفاق فيكون فؤاد بريئاً من التهمة التي ألصقها به نكد الحظ

لم أقل ذلك عفواً الخاطر او من قبيل التفلسف في الامور ؛ وانما بنيت قولي على توافر عقائد في نفسي حسبها براهين تميز لي نفي التهمة عن فؤاد ، والقاءها على عاتق سواه . فعزمت على ان استكشف الحقيقة مهما اقتضته من عناء ومال ، لأن الصحافي الماهر هو من بذل جهده لمعرفة الحقائق ، ثم سبق الى نشرها ؛ وانما بهذين اشهرت « الأيام » ومشت في طبعة الجرائد العربية الكبرى

أما شكوكي فبدأت حيث بدأ اقتناع النيابة العمومية . هي كانت ترى كل شيء ايجاباً في حين كنت أراهُ أنا سلباً . فغيرة فؤاد وتهديده ، وسهره وقلقه ، ورسالته الى والديه ، وسفره الى الاسكندرية ، وعزمه على مغادرة القطر ، كانت جميعها

دلائل وقرائن عليه في نظر من يأخذ الأمور بظواهرها . غير ان النيابة ذهب عن بالها ان تبحث ، في الدرجة الأولى ، عن الطريق التي سلكها فؤاد الى الغرفة النائمة فيها أدماء حتى تمكن من ارتكاب الجريمة . أمّا أنا فلم أغفل هذا الأمر قط ، فقد عرفت أن الخواجه فرج الله أقفل يده باب المنزل قبل أن نام ، وترك المفتاح في ثقب الغال من الداخل . ثم علمت ان الخادمة ، لما أفاقت في الصباح ، وجدت الباب مفتوحاً فاستنكرت ذلك كما استنكره سيدها والخواجه سليم ايضاً . ولو تنبّه رجال التحقيق الى ان الغال لا يمكن فتحه بمفتاح من الخارج ، ما دام ان المفتاح متروك في ثقبه من الداخل ، لأدركوا مثلي أن الجاني إما أن يكون غريباً ، وإما أن يكون بعض أهل أدماء . فان كان الأول اقضى أن يكون له شريك ممن في المنزل فكأنه من الدخول ؛ وإن كان الآخر وجب ان يكون أحد اثنين : إما الخادمة ، وإما الخواجه سليم . وأمّا أن يكون الجاني قد دخل البيت من غير بابيه فما لم يكن معقولاً قط لأن العلو شاهق جداً ، والبيت مطلّ من جميع جهاته على الشوارع المنارة حيث الخفراء والمارة لا يبرحون بين رواح ومجيء . أضف الى هذا كله ان البرد كان قارساً في تلك الليلة ، وأن النوافذ جميعها بقيت مغلقة حتى الصباح

ولما تشبعت من هذه الحقائق بحثت عن سيرة الخادمة منقّباً مستقصياً فعرفت أنها قديمة العهد في منزل الخواجه فرج الله ، وأنها اعتنت بادماء بعد وفاة والدتها ، وحت عليها كما لو كانت أمها الحقيقية ، وأحببتها باخلاص شديد ، فكانت لها خادمة وأمّاً وصديقة معاً . أو بعد هذا ما يستوقف شهبائي عليها ؟ ولكتني وقعت حينئذ في حيرة شديدة : فلا ظنوني بواقعة عند الخواجه فرج الله ، ولا شكوكي بمتقلّة الى الخواجه سليم . ذلك والدّه وهذا خطيب وابن عمّ

فمن الجاني اذاً ؟ أشيطان من جهنم ، أم ملك من السماء ؟

ولقد حاولت كثيراً أن أذهب مذهب النيابة العمومية في اتهام فؤاد الباني فلم

استطع . وزادني تشبثاً في رأبي هذا أن فؤاداً لم ينكر الجريمة كل الانكار فقط ، بل بكى بكاءً مرّاً حين درى بها اشفاقاً منه وحناناً على ادماء . وقد جرب اقناع رجال التحقيق بأن تهديده لحبيته لم يكن الاً تهديداً كاذباً حاول ان يتعلق به ، وهو آخر سلاح كان قد بقي له ، كما يحاول التريق التعلق بالطحلب في الماء ، وان عزمه على السفر لم يكن الاً يأساً وقنوطاً لأن نفسه لم تكن تطيق ان يرى ادماء لسواه . على ان كل ذلك لم يفده شيئاً ، بل أحالته النيابة العمومية على محكمة الجنايات ليحاكم أمامها كقاتل متعمد . وراجعت نفسي مراراً في اتهام الخواجه سليم خوري فما ازددت الاً اعتقاداً بكونه الجاني الاثيم . فقد تبينت أموراً جديدةً بالاعتبار ، أغفل وكيل النيابة بعضها ، وحمل بعضها الآخر على محامل شتى . من ذلك : أن الخادمة عرفت السكين التي طُصت بها ادماء أنها سكين مطبخها ، مما دلّني على أن اليد التي استعملتها وصلت الى مكانها بدون عناء . وهل يُعقل أن قاتلاً متعمداً يجيء ليقتل ، تحت جنح الليل ، فيجبي بدون سلاح على نية أن يجد له سلاحاً ما في المكان الذي نوى الجناية فيه ؟ ومن ذلك ان الجاني كان على يقين من ان ادماء لا تغفل بابها من الداخل في الليل . وانى لغريب عن المنزل أن يكون على بينة من هذا الأمر ؟ ومن ذلك أيضاً ان سليماً كان بحسب الطعنة قاتلة ، فلما فاجأه الطبيب بقوله إن ادماء حية لم تمت ، أجفل في مكانه اجفال مؤمل بوغت بضباع أمله . ومن ذلك أخيراً ان سليماً كان أشدّ الشهود رغبة في القاء التهمة على فؤاد . وكانت هذه الرغبة تبدو عليه في أقواله وحركاته جميعها . فكل ذلك قوّى اعتقادي بأن اليد التي جنت انما هي يدُ سليم دون سواه . ولكن إقدامي على اتهام الرجل في الأيام ، كان محفوفاً بالخطر . فالبيّنات على خطورتها كان يمكن دحضها بمثلاً . ولذلك عولت بعد التفكير الطويل على كتمان شكوكي في نفسي ، مع مواصلة التحري الدقيق . وكان أول خاطر خطر لي أن ابحث عن ماضي سليم وتاريخه في

الترنستال . فأرسلت رسالةً برفيعة إلى زميلي صاحب جريدة « جوهنسبورج دايلى نيوز » في مدينة جوهنسبورج أطلعتُ فيها على دخائل نفسي وطلبت إليه ، بما للزميل على الزميل من الحقوق ، أن يوقني على حقيقة سليم ، فجاءني تفراف منه بعد أيام قصيرة محتويًا على هذه الكلمات شكوك في محابا . التفصيل مع البريد ، وكانت ادماء في خلال هذه المدة قد تماثلت للشفاء ، وأخذت تعاودها العافية على مهل . اما شهادتها لدى وكيل النيابة العمومية فكانت قاصرةً على أنها بادلت فؤاداً المحبة ووعدهً بالزواج ، ولكنها أكرهت على النكث بعهدها أمام ارادة والدها وإلحاحه الشديد وقد أطلعت خطيبها سليماً على علاقتها السابقة بفؤاد ولم تكنه شيئاً منها . ولما جاءت رسالة التهديد لم تحفل بها كثيراً . ثم نامت ولم تدر ما جرى كيف جرى

وأقتُ انتظار بريد الترستال وأنا على مثل الجرح حتى وردت عليّ بعد مضي شهر الرسالة التي نبئت بها تفرافياً ، فنشرتها في « الأيام » وعلقتُ عليها خواطري وظنوني وخلاصة هذه الرسالة ما يأتي : ان الخواجه سليم خوري ، الحوي الأصل والنشأة ، هاجر الى الترستال منذ عشر سنوات لم يأت في خلالها عملاً نافماً قط ، بل كان على العكس من ذلك فاسد السيرة ، سافل الأخلاق . وقد حكمت عليه محاكم جوهنسبورج ثلاث مرّات اثلاث جرائم ارتكبها كانت خاتمها سرقة قضى أربع سنوات محبوساً من أجلها ، ولما أُخرج من السجن علق بفتاة رومية مجهولة النسب فتزوجها . وكان يُحبّها حباً عظيماً ورزق منها ابنتين وولداً ذكراً

هذا مجمل ما حوته الرسالة . أمّا النيابة العمومية فاستدعت سليماً إليها على أثر ما نشرته « الأيام » ولم تزل به حتى أقرّ بأنه هو الذي ارتكب الجناية التي اتهم بها فؤاد افندي اليافي . قال انه نكب في الترستال بالفقر المدقع ولم يكن يعلم ان عمّة يملك ثروة كبيرة في مصر . وقد كتب عمّة إليه في الزمن الأخير ملحاً عليه بأن

يجيء القطر المصري فيزوجهُ بابتنه الوحيدة فتحوّل اليه ثروة طائلة . فخار في أمره بين أن يأتى وأن يقبل فإنّ زواجه السابق في جوهنسبورج يحول دون زواجه الآخر في مصر وإنّ حبه لزوجه وأولاده يمنعه من التخلّي عنهم رغم ما كان يمكن ان يعقب تخليه من الحوادث والمشاكل . ورأى من جهة أخرى انه اذا لم يأت مصر حرم مالا وفيراً كان في اشدّ الحاجة اليه . لذلك وجد ان الطريقة المثلى ان يمتثل على ثروة عمه بكلّ انواع الخيل فإن لم تسعده هذه ارتكب الجناية غير هيّاب ولا وجل . وساعده على تحقيق امانيه وجود العلاقات الحية بين ادماء وفؤاد اليافي وتجاور بيتيهما . فأقام يترصد فرصة مناسبة لاغتتيال الفتاة بدون ان يكون موضعاً للشبهات ولكنه احجم اكثر من مرّة عن ارتكاب الجناية حتى كانت ليلة الزواج وقد اطلعت ادماء على رسالة فؤاد التهديدية فلم يجد خيراً من تلك المناسبة ، فأشار على ابنة عمه بوجود الاحتفاظ بالرسالة ، على نية ان يجعلها مرشداً لرجال التحقيق ، ودليلاً يصرف شبهاتهم عنه الى فؤاد ، وقد فتح الباب ليوم دخول الغائل منه ، وهو يحسب ان رسالة التهديد وفتح الباب دليلان كافيان لاثبات التهمة

واشتهر بين الناس فضلي باستكشاف حقيقة هذه الجناية فأكبر الجميع عملي ، واعلن ولاية الأمر شكرهم لي . اما انا فلم يسرني هذات الاكبار والشكر بقدر ما سرني زواج فؤاد افندي اليافي بادماء كريمة انلواجه فرج الله خوري . وكان ذلك على اثر صدور الحكم على سليم الجاني بلاشغال الشاقة

وسيم السبانه

صاحب جريدة الايام

ورئيس تحريرها